في الأدب المقارن

أثر الفنـــون
في الأدبين العربي والانجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

تختلف الفنون في مجالاتها وبعض وسائلها : فللشعر من القدرة على وصف الحركة وتناول الأشياء المتباعدة في الزمان والمكان ما ليس للتصوير ، ولهذا من المقدرة على بيان دقائق الموصوف وتحديد ماهيته ما يعوز الشعر ؛ ولكن الفنون تتفق جميعاً في غايتها التي هي التعبير عن تأثر الانسان بروائع الحياة وشغفه بجمالها ، وفي كثير من وسائلها التي تتصل بطبائع الانسان وميوله : كالتناسب والتماثل والتكرار في الشكل أو في النغمة أو في الروي ، والتقابل والتضاد في كل أولئك

فالفنون على تعددها مظاهر شتى لصفة إنسانية واحدة ، هي تَرَهُّفُ الشعور وحب الجمال . ولا يخلو المبرِّز في أحد الفنون من بَصَرٍ بسائرها وإن قل ، وحب لها يعلو على حب الفرد العادي . وكثيراً ما جمع الفنان الموهوب بين فنون عديدة يبرع فيها جميعاً ؛ وقد نبتت الموسيقى والشعر والرقص بين الجماعات الأولية من أصل واحد ونَمَتْ حتى استقل كل منها . وكان الشعر في بدئه موسيقى عجماء وصيحات غنائية غير ذات معنى ، ثم داخلها المعنى تافهاً في أول أمره ، وما زال يتعاظم شأنه حتى احتل المكانة الأولى في الشعر ، وإن لم تفقد الموسيقى أهميتها في رصانة القصيد ، فأي شعر خلا منها قصر عن أوج الكمال مهما سما معناه

وقد مارس العرب والانجليز تلك الفنون الثلاثة : الموسيقى والرقص والشعر ، منذ عهودهم الأولى ، وارتقت موسيقاهم بمخالطة الأمم الأخرى : فأخذ العرب عن الفرس ، والانجليز عن الايطاليين خاصة والفرنسيين ما لم يكونوا يعرفون من أصوات الموسيقى وآلاتها ومصطلحاتها وبان أثر ذلك في أدبهم . وأبدع أمثلة لشعر الغناء والرقص في الانجليزية قصائد ملتون التي نظمها قبل انغماره في حركة المطهرين . وممن تغنى من شعراء الانجليزية بتأثير الموسيقى والغناء دريدن في قصيدته « مأدبة الاسكندر » ، وكولنز في قصيدته « العواطف »

وبذلك تغنى أيضاً شعراء العربية ، بل بلغ انكبابهم على غشيان مجالس الغناء والرقص حداً بعيداً ، بعد أن انتشر الترف عقب الفتوح ، حتى كاد شعر كثير منهم ، كبشار وأبي نواس ، ينقسم إلى بابين رئيسيين : المدح الذي يُطلب من ورائه المال الوفير ، والتغني بمجالس اللهو والطرب التي يُنفق فيها ذلك المال . ومن جيد ما قيل في وصف المغنيات وآلات الموسيقى قول ابن الرومي :

وقيانٍ كأنها أمهات ... عاطفات على بنيها حوان
كل طفل يدعى بأسماء شتى ... بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه ... وهو بادي الغنى عن الترجمان
ذات صوت تهزه كيف شاءت ... مثلما هزت الصَّبا غصن بان

وقوله في راقصة :

إذا هي قامت في الشفوف أضاءها
سناها فشفَّتْ عن سبيكة سابكِ

وارتقى بين الأمتين حين تحضرتا فن العمارة ، وقامت في بلادهما بيوت الملك والعبادة ، والحصون والمعاقل ، وتأثر فن العمارة في كلتيهما تأثراً كبيراً بالطراز القوطي ، واسترعت الأبناء تلك المباني الضخمة والحصون المشيدة ، تروع الناظر فخامتها ، ويعجب اللب من مغالبتها كر السنين ومصاحبتها جيلا من الناس بعد جيل ؛ وشغل شعراء العربية خاصة بوصف قصور الملوك ، وما حَوَتْ من ضروب الزخرف . ولفتت أذهانَ شعراء الانجليزية وكتَّابها القصور والبروج المتخلفة من عصور الاقطاع تلك التي تجيش بذكريات الماضي والتي شهدت مصارعات الأمراء ومحنهم في غيابتها . وكانت لكثير من الأدباء مواقف بالكنائس والكتدرائيات ، ولا سيما وستمنستر أبي التي تمج رحابها بآثار الماضي

ووصلت يد كل من الأمتين إلى تراث اليونان ، فاختلف موقفاها : فأما الانجليز فلم يتركوا شاردة ولا واردة من آثار

ثقافة اليونان وفنونهم إلا تزودوا منها ، فأحدث اطلاعهم على روايات سوفوكليس وأوربيدس انقلاباً فى « رواية المعجزات » التى ترعرعت فى الكنيسة فى العصور الوسطى ، فالتفتت إلى تصوير طبائع النفس الانسانية ، أى صارت فناً ؛ وأخذ الانجليز عن اليونان وتلامذتهم الطليان النحت والتصوير . وكانت بلاد اليونان وإيطاليا وما تزالان محج رجال الفنون الانجليز من شعراء ومصورين ونحاتين وموسيقيين ، وكانت صورهم وتماثيلهم وماتزال وحياً ونماذج لفنانى الانجليز ؛ وأنجبت إنجلترا عدداً عديداً من نوابغ المصورين والمثالين جارَوْا أساتذتهم من أهل القارة فى مجالات النحت والتصوير ، كما جاروهم فى مضمار الأدب

وظهرت آثار تلك الفنون فى الأدب الانجليزى : فالتمثيل صار باباً من أبواب الأدب له خطره ، وتوفر عليه أكثر نوابغ العصر الاليزابثى وكثير ممن تلاهم . والصور والتماثيل التى أبدعها رجال الفن الانجليز أمثال رينولدز وكنستبل وترنر ، والأجانب أمثال رافائيل ودورر وفانديك ، وسير أولئك النوابغ ، صار كل ذلك مجالاً لتأمل الشعراء والكتاب ، ومهبطاً لآثار أخرى فى عالم الأدب لا تقل مكانة عن تلك الآثار فى عالم النحت والتصوير ؛ وصرف بعض الأدباء همهم إلى نقد أعمال المصورين والنحاتين والممثلين ، ومن أولئك هازلت ورسكن ، وإلى الأخير يرجع الفضل فى إظهار المصور ترنر

وقد قضى كيتس وشلى وبيرون وبروننج وهاردى ودحاً طويلاً أو قصيراً من أعمارهم فى إيطاليا ، حيث استطابوا مناظر الطبيعة وتفيأوا ظلال آثار الرومان واستلهموا بدائع المصورين والمثالين الطليان ، بين رومة وفلورنسة والبندقية ، وقضى الشاعران الأولان نحبيهما هناك ، ودفنا فى أرباض تلك المعاهد التى ألفاها حيَّيْن . وبين أطلال رومة نبتت فكرة عمل من أكبر أعمال النثر الفنى فى الانجليزية ، ألا وهو تاريخ جيبون عن انحطاط الدولة الرومانية وسقوطها ، فهو يحدثنا فى مذكراته أن الرغبة فى وضع مؤلَّفه عنَّت له أثناء تجواله هناك بين آثار الوثنية ومعالم النصرانية

ولم تقتصر الصلة بين الأدب وغيره من الفنون على اقتباسه منها واستلهامه إياها ، بل حدث العكس : إذ عمد أعلام تلك الفنون إلى الأدب يطلبون الوحى وينشدون النماذج ، فوجدوا فى روايات شكسبير العديدة ، ومناظرها الكثيرة ، وشخصياتها الحية ، ومواقفها الحافلة بشتى العواطف ، وفى خرائد ملتون المملوءة بالأوصاف والصور والحالات النفسية ، وفى روائع تنيسون وبروننج المنسوجة من أشتات الخرافات البديعة ، منادح لفنهم ومسرى لخيالهم . والمتاحف الانجليزية ملأى بتلك الآثار المنتزعة من قصائد الشعراء . كصور ليدى شيلوت ، وأوفيليا ، والحسناء القاسية

وكان من شعراء الانجليزية المعدودين من ضربوا بسهم فى الفنون الأخرى ، واشتهروا بها اشتهارهم بصناعة القلم : فشكسبير كان ممثلاً كما كان شاعراً ومؤلفاً للمسرح ، ووليم موريس كان مصوراً وشاعراً ، وروزيتى ألَّف جماعة « ما قبل الرافائيليين » التى كانت لها مبادئها فى التصوير ، كما كان لها مذهبها فى الأدب ؛ وأكثر من هؤلاء من لم تدركهم الشهرة فى غير الأدب من الفنون ، وإن كانوا شديدى الولع بها ، شديدى الشغف بممارستها والتثقف فيها

وهكذا أصبح من غير النادر فى الانجليزية أن ترى الأسطورة أو القصة التاريخية ، كوقائع يوليسيز ومخاطرات فرسان المائدة المستديرة . وقد تناولها الشاعر والممثل والمصور والنحات كل من ناحيته مستقلاً بنظرته ، أو معتمداً على الآخرين ، مستلهماً محاسنها ومغازيها ، مبرزاً من صورها وأفكارها ما يلائم فنه ويجرى فى مجال صنعته ، نافثاً فيها من خلاصة تفكيره وعصارة شعوره واتجاهات عصره ما يزيدها جدة وروعة

هذا التواصل والتجاوب والتعاون المستمر بين الفنون زاد الأدب الانجليزى خصباً على خصب أفسح أمامه أغراض القول ، وزاد رجاله بصراً بحقائق الفن وغاياته ووسائله ، واعتقاداً بوحدة الفنون جميعاً وتلاقيها فى الوسائل والغايات ؛ فحرصوا فى نثرهم ونظمهم على صدق النظرة وصحة الشعور ونشدان الجمال ، واستعاروا وسائل الموسيقار والمصور والممثل والنحات ، فاهتموا بالأوصاف الجميلة للطبيعة والانسان ، واعتنوا بتوضيحها وإبرازها ، متوسلين لتصوير المعنى بجرس اللفظ ومناسبة التعبير واختيار القوافى . وتصرفوا فى الوزن والروى بما يلائم الحالة الموصوفة من سكون

أو حركة ، وفرح أو حزن ، وقـوة أو لطف : وتأنقوا فى صوغ الحوار بين أبطال قصائدهم ، معبراً حوارهم عن منازعهم ؛ فاذا قرأت القصيدة القصيرة أو الطويلة لأحدهم ، لم تجدك حيال معان ذهنية متزاحمة ، بل رأيت صوراً محكمة التصوير ، وموسيقى مطربة النغمات ، وأشخاصاً ممتلئين حياة وقوة وألواناً وظلالا

ولم يغفل الشعراء الذين مجدوا الفنون الأخرى ذلك التمجيد عن فنهم الخاص : فنظم بوب وكيتس وتنيسون وغيرهم من الأعلام قصائد غراء فى الشعر والشعراء . ولملتون وماثيو أرنولد أشعار فى شكسبير تفيض إعجاباً وتقديساً ، ولوردزورث وتنيسون وأبر كرومبى الشاعر المعاصر فى ذكرى ملتون أشعار كهذه . وكان هاردى لا يعل ذكر شلى وتعظيمه فى قصيده ؛ وكانت لشعراء الأمم الأخرى لدى شعراء الانجليز منزلة كهذه ، فأشعارهم ملأى بمدحا كاة الشعراء الأقدمين كهوميروس وفرجيل ودانتى والخيام ، والمحدثين كشيلر وجيته وهيجو ، وترجمتهم والتحدث عنهم ، لأن الفن يجمعهم طراً فى صعيد واحد ، ويمحو بينهم فوارق الزمان والمكان

وما أعظم الفرق بين هذا الاعجاب النبيل بمتقدمى الشعراء ، وبين ما نراه فى العربية من وثوب بعض الشعراء ببعض ، ووقوع حماد فى بشار ، وحملة ابن الرومى على البحترى ، وحقد دعبل على الطائى ؛ أذهلهم التناحر على متاع الدنيا عن الصلة السامية التى يصلهم بها الفن ؛ وقد نعلم أن البحترى كان يقدّم أبا تمام ، وأن المعرى كان يعظم أبا الطيب ، ولكن ذلك التقدير لم يتخذ شكلا فنيا ، ولم يبرز فى عالم الشعر قصيداً رائعاً يفيض بتقديس الفن وتبجيل رجاله . وبينما كان ذلك التحاقد ديدن شعراء العربية فيما بينهم كان جهلهم بشعراء الأمم الأخرى مطبقا

لقد حجب العرب عن تلك العوالم الفنية إعراضهم عن تراث اليونان الفنى ، ودعاهم إلى ذلك الأعراض تمكن الملكة البيانية منهم ؛ تمكنت من نفوسهم فى البادية ، حيث لا تتوفر أدوات فن من الفنون سوى فن البيان الذى لا يحتاج إلى أدوات غير صفاء الذهن وطلاقة اللسان ، وقوّى اعتداد العرب بتلك الملكة وتوفرهم عليها نزول القرآن الكريم الذى زادهم كلفا بالفصاحة ، وكان دائماً أساس ثقافتهم التى يؤخذون بها من الصغر . فالانجليز اتصلوا بتراث اليونان وهم بعد مقصرون دون جميع غايات الثقافة ، فاغترفوا من جميع مناهله ؛ ولم يتصل العرب به وبغيره من تراث الأمم إلا بعد أن توطد أدبهم وتمكن سلطانه من نفوسهم ، فشمخوا به على سائر الآداب ، واستغنوا به عن كل الفنون

لذلك لم يحفل العرب بالتمثيل ، ولم يزدهر بينهم التصوير والنحت ، ولم يتعديا حدود الصناعة ذات الغرض المادى إلى حدود الفن السامى الذى هو غاية نفسه ، واقتصروا من التصوير والزخرفة والنحت على ما كان يزين قصور كبرائهم من تهاويل ودمى قليلة الحظ من الفن ، لا تحمل وراءها من المعانى السامية ما تحمله الصور والتماثيل الفنية ؛ واستبد الأدب بالتعبير عن أسمى مشاعر العرب وأرق أفكارهم . وإذا تذكرنا أن الفنين الآخرين سالفى الذكر - الموسيقى والرقص - لم يتخلصا من ربقة المادية وشبهة الشهوات إلى عوالم الفن المتسامى بالنفوس ، وظلا دائماً مقرونين بالشراب والقصف وخلع العذار ، تبين لنا أن الأدب كان فنّ العرب الفرد ، وأن الشعر ظل ديوانهم فى مختلف عصورهم ، أودعوه حوارهم فاستغنوا عن التمثيل ، وأوصافهم فاستغنوا عن التصوير ، وأمداحهم فقام مقام التماثيل

ومن ثم نرى أثر فنون التمثيل والتصوير والنحت فى الأدب العربى ضئيلاً : فلم يكن بين العرب ممارسون لتلك الفنون ينعكس ظل فنونهم فى الأدب ؛ ولم يكن لدى أدباء العربية كبير اهتمام بمخلفات الأمم السالفة فى مشارق دولتهم ومغاربها . ومن القليل الجيد الذى نظموه فى تلك المناحى سينية البحترى التى يصف فيها نقوش إيوان كسرى ، ورائية ابن حمديس التى يصف فيها تماثيل الأسود فى بعض القصور ، وسينية أبى نواس التى يصف عرَضاً فى أثنائها تصاوير كأسه فى قوله :

قرارتها كسرى وفى جنباتها ... مهاً تدّريها بالقسى الفوارس
فللخمر ما زُرت عليه جيوبها ... وللماء ما دارت عليه القلانس

وقول بعض شعراء الأندلس فى تمثال امرأة وولدها :

ودمية مرمر تزهو بجيد ... تناهى فى التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا ... ولا ألمَتْ بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجرٌ ولكن ... تتيمنا بألحاظ مراض

ولا تخلو كل هذه الشواهد من آيات البراعة وحسن الملاحظة

والوصف ، حتى ليأسى المرء على أن لم يول العرب هذه المناحى من القول اهتماماً أكثر مما أولوها . وسينية البحترى مَثَلٌ شرود من أمثلة الشعور الصادق والعاطفة الانسانية والروح الفنيـة فى الأدب العربى ؛ وأعجب من تفردها فى الأدب العربى صدورُها عن البحترى الذى سخَّر بيانه للمدح والهجاء . وقد كان نقاد العرب يطربون لهـذه الأشعار الفنية الجميلة ، البعيدة عن آثار المدح والهجاء والنسيب المتكلف ، فقد أعجب الجاحظ وغيره بسينيتى البحترى وأبى نواس سالفتى الذكر ، وعدوهما من ذخائر الشعر العربى ، ولـكن دواعى مثل هذا النظم كانت نادرة ، وتيار محاكاة السابقين كان يدفع الأدباء فى غير هذا الاتجاه .

فالأمتان العربية والانجليزية تتفقان فى ظهور الأدب فيهما على سائر الفنون واجتـذابه أغلب نوابغهما ، واشتهارهما بالسبق فيه بين الأمم ، فان الانجليز وإن جاروا الأوربيين فى مجالات النحت والتصوير لم يبلغوا شأوهم كما بلغوا الشأو والغاية فى صناعتى الشعر والنثر ، ولم ينجبوا من أعلام النحت والتصوير من توازى مكانته العالية مكانة شكسبير وملتون وبيرون ؛ ولـكن تفترق الأمتان فى أنه بينما مارس الانجليز الفنون الأخرى وهاموا بها وبجدوا آثار الأمم الأخرى فيها أهمل العرب الفنون الأخرى إهمالاً يكاد يكون تاما ، فلم تجتذب اهتمام نوابغهم ومثقفيهم ، وظل ما عرفوه منها أدنى إلى الصناعات منه إلى الفنون ، وظل الأديب — ولا سيما الشعر — يشـغل فى عالم الفن والوجدان مكاناً عالياً وسلطة مطلقة فردية بين العرب ، كسلطة الخلفاء والأمراء المستبدة فى عالم السياسة ، متوحداً بالافصاح عن أفكارهم مستأثراً برعايتهم وإجلالهم

وقد خسر الأدب العربى بتفرده هذا الشىء الـكثير ، لأن الفن الواحد لا ينمو خير نموه بعزلتـه ، بل بمواصلته الفنون الأخرى ؛ خسر ما كان ينتظر أن تمده به تلك الفنون من إلهامات ومنادح للقول ، وما كان ينتظر أن تبثه فى رجاله من فهم دقيق للفن وسمو غايته وتعاليه عن المـادة وبُعد مراميه ، وما توحيه إليهم من وسائل للتعبير والتصوير والملاءمة بين المعنى واللفظ ، وجعل الأخير دائماً خادما للأول . وبالجملة خسر الأدب معاونة الفنون التى استأثر بالمكانة دونها ، كما خسر مساعدة الآداب الأجنبية التى ترفَّع عنها

فخرى أبو السعود

صديق !

للأستاذ على الطنطاوى

أستأذن أستاذنا المازنى فأستعير منه تلك الـكليشيه المهجورة التى كان يصدر بها مقالات ذات الثوب الأرجوانى ، لأقول : إن المقالة خيالية لا حقيقية ، وأؤكد هـذا للقراء ! (على)

قال :

... لا أدرى كيف عرفته ، ولا أعلم السبيل التى دخل منها إلى قلبي ؛ فاحتل فيه هذه المنزلة ، ولم أنتبه له إلا وهو ملء سمعى وبصرى وعقلى ...

وإننى لأعرفه منذ عشرين يوما ، ولـكنى أحاول عبثاً حين أحاول ادكار بدايتى معه ، لأنه عماد حياتى ؛ لا أستطيع أن أتصور لصلتى به بداية ؛ عرفته يوم عرفت الدنيا ؛ لم أجهله قط ولم أنفرد عنه ساعة ؛ وهو دنياى ، إن لقيته لقيت الحياة ، وإن نأى عنى وجدت كل شىء فى الحياة ميتا

ولست أدرى أى صلة هذه ، ولا أعرف لها تحديداً مضبوطاً ، ولـكن الذى أدريه وأعرفه أنه ليس له فى أعماق قلبى إلا الصداقة . إننى لم أنظر إلا إلى روحه ، بل أنا لا أقدر أبداً أن أتخيله بشراً من لحم ودم . إننى أراه فكرة سامية ، صورة شعرية بارعة ، معنى من المعانى العبقرية ... إننى أراه وحده معنى كلـمة الوجود ... لقد ضاعت معه حدود شخصيتى ، وعميت معالمها ، فلم أعد أعرف أين أنتهى (أنا) ، وأين يبدأ (هو) ، وامتزجت نفسى بنفسـه ، فكأنى (أنا من أهوى ومن أهوى أنا . . .) ، وكدت أقول بالحلول ، وأرتكب هذه الحماقة الـكبرى ، التى لا يقول بها ذو عقل . . . حين رأيتنى أضحك إذا سر (هو) ، وأحزن إذا تألم ، وأشبع إذا أكل ، وإذا أصابه الصداع وجعنى رأسه ؛ وإذا رأى (هو) حلماً هنيئاً تبسمت وأنا غارقٌ فى منامى ، أجد اللذة الـكبرى فى رفاهيته وراحته ، وآلم لشقائه أكثر مما آلم لشقائى ، وأريد أن أمنحه صحتى وحياتى وكل ما أملك ؛ أريد أن أفنى فيه ولا أجد فى شىء من ذلك عملاً كبيراً ، ولا أحس أنى مقدم على تضحية ، لأنه اندمج فى أعمق عاطفة من عواطفى ، فنزل إلى